

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الأبيوردی المثنی الصغیر

للدكتور عمر الأسعد

فی سیر اعلام التراث العربی صفحات مطویات جدیرة بالكشف عنها والتأمل فیها ویتناول هذا المقال واحدا من اعلام الشعر الذین یمثلون النقلة بین العصور العباسیة الزاهیة وأعلامها من الشعراء النابهین ، وما تلاها من عصور عز فیها الشعراء المتمیزون . فشاعرنا من بقایا فصاح تلك العصور الادبیة العباسیة ، ممن عاشوا فی العصر السلجوقی الاول ، فی النصف الثاني من القرن الخامس الهجری ، ولم یكتب لشعرهم الذیوع ولا سمائهم الاشتهار ذلكم هو أبو المظفر محمد بن أحمد الابیوردی المتوفی سنة سبع وخمسمائة للهجرة ، عصری أبي یعلی محمد بن صالح المعروف بابن الهباریة (المتوفی سنة أربع وخمسمائة » وأبی اسماعیل الحسین بن علی المعروف بالطغرانی (المتوفی سنة ٥١٥) وأبی اسحاق ابراهیم بن عثمان الغزی (ت ٥٢٤) وأبی بكر أحمد بن محمد بن الحسین الارجانی (ت ٥٤٤) وغيرهم .

عصره :

نشأ الابیوردی فی القرن الخامس الهجری الذی شهد أحداثا تاریخیة عمیقة وتطورات سیاسیة هامة عد من أجلها نقطة تحول فی التاريخ الاسلامی ، لكثرة ما جرت تلك الاحداث من تطورات ، وما تركت من مضاعفات ، وما یعنینا من هذه الاحداث والتطورات أن عهدا جدیدا فی الحكم والسیاسة ولد فی خراسان والعراق موطن شاعرنا الابیوردی ، فقد ظهرت دولة السلاجقة الکبری سنة ٤٢٩ ، وامتدت الى بغداد حاضرة الخلافة العباسیة وأمدتها بدماء جدیدة جددت شبابها ، وأعادت الیها قوتها وهیبتها ، ولبثت تتصرف بمقالید المنطقة کلها طوال القرن الخامس

والسادس بين القوة والضعف حسب اختلاف الأزمان وتقلب السلاطين .

عاصر الابیوردی من خلفاء بني العباس كلا من القائم (أبي جعفر عبد الله بن القادر ٣٩١ - ٤٦٧) والمقتدي (أبي القاسم عبد الله بن محمد بن القائم ٤٤٨ - ٤٨٧) والمستظهر (أبي العباس أحمد بن المقتدي بالله ٤٧٠ - ٥١٢) فأدرك من عهد القائم السنوات السبع عشرة الاخيرة وهي سنو حياته الاولى ، وعایش المقتدي الذي استخلف سنة ٤٦٧ عهده كله وهو عشرون سنة ، وسلخ من عهد المستظهر الذي بوبع بالخلافة سنة ٤٨٧ مثل ذلك ، حيث مات قبل الخليفة بخمس سنين .

أما سلاطين السلاجقة وهم أصحاب السلطة الفعلية ، فعاصر منهم الثلاثة العظام في عصرهم الذهبي ، والثلاثة الذين تلوهم . فقد ولد زمن مؤسس الدولة محمد بن ميكائيل بن سلجوق المعروف بطغرلک (٣٨٥ - ٤٥٥) وترعرع ونشأ نشأته الاولى زمن محمد بن داود بن ميكائيل المعروف بألب أرسلان (٤٣١ - ٤٦٥) وبلغ أشده واشتد عوده أيام ملكشاه بن محمد (٤٤٧ - ٤٨٥) وابنه محمود الذي توفي سنة وفاة المقتدي . وشارف مرحلة النضج في سلطنة بركيارق (٤٧٤ - ٤٩٨) ومحمد (٤٧٤ - ٥١١) ابني ملكشاه .

وهكذا عاصر أربعة من سلاطين السلاجقة معاصرة تامة ، واثنين منهم معاصرة جزئية ، وشهد ما حفلت به عهودهم من صراع عائلي على السلطة بلغ أحيانا حد النزال الدموي . وكان أخيرا ضحية من ضحايا الدسائس والمؤامرات التي نجمت عن ذلك الصراع ، وتفرعت عنه في حلقة من حلقاته .

وكما كان له مع المقتدي والمستظهر اتصالات دلت عليها مدائحه فيهما ، فقد كان له شيء من ذلك مع بعض السلاطين وأوسع من هذا وذلك ما قام بينه وبين وزراء هؤلاء وحواشيهم من صلات وعلاقات انعكست صورها فيما حفظه لنا ديوانه من أشعاره فيهم . ومن يرصد شعره في هؤلاء يهتد الى طبيعة العلاقات والتغيرات التي اعتورتها تبعاً للتطورات السياسية والمصالح الفردية .

مصادره :

ترجم للابیوردی كثير من كتب السير والتراجم المتقدمة والمتأخرة . غير أن بعض هذه المراجع تميزت على غيرها من حيث قيمة الترجمة أو اتساعها أو تفردا بمعلومات لم ترد في سائر المراجع (١) .

(١) أبرز من ترجم للابیوردی ابن الجوزي في المنتظم ٩ : ١٧٦ - ١٧٧ ، وياقوت في معجم الادباء ١٧ : ٢٣٤ - ٢٦٦ ، والقطبي في انباه الرواة ٣ : ٤٩ - ٥٢ ، وابن خلكان في وفيات الاعيان ٤ : ٤٤٤ - ٤٤٩ ، والسبكي في طبقات الشافعية ٤ : ٦٢ - ٦٣ ، وابن العماد في شذرات الذهب ٤ : ١٨ - ٢٠ . ومن الواضح أن أكثر المراجع المتأخرة نقلت عن المتقدمة ، ولم تضيف الى ما أورده شيئا .

على أننا سنحاول فى التعريف بالشاعر والترجمة له ، أن نتخذ من ديوان شعره وثيقة نستشيرها فى جلاء ما غمض من جوانب سيرته وأخلاقه ، فديوانه سجل حافل لحياته بما فيها من مباحج وآس وعسر ويسر ، ووثيقة تفصح عن علاقاته بالامراء والوزراء والحاكمين والاقارب والاصدقاء ، فضلا عن كونه سـجـلا تاريخيا دونت فيه بعض الاحداث التي جرت فى ذلك العصر . ومن هنا تبدو أهمية الديوان فى اظهار سيرة صاحبه .

نسبه :

ينتهي نسب أبي المظفر محمد بن أحمد بن اسحاق الى معاوية الاصغر ، الذي يتصل بدوره بعثمان بن عتبة بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية (١) . وفى شعره ما يؤيد ما أجمعت عليه المصادر من اتصال نسبه بأبي سفيان :

وأقرع أبواب الملوك بوالد حوى بأبي سفيان أشرف منتمي

وقيل انه كان يكتب فى نسبه «المعاوي» وقد استعمل هذا اللفظ فى شعره فى مثل قوله :

والمعاوي اذا رام العـلا نعر النية نسال القوافي (٢)

وذكر أنه كتب مرة رقعة الى الخليفة المستظهر ، وكتب على رأسها : الخادم المعاوي ، فكره الخليفة النسبة الى معاوية واستبشعها ، فأمر بكشط الميم ورد الرقعة ، فبقيت : الخادم العاوي ! (٣)

وكان احساسه بشرف نسبه باعثا على اعتزازه به فى مواضع كثيرة من ديوانه كقوله :

اذا انتسبنا احب الناس انهم منا ، ولم نرض ان نعزي الى احد

أما أمه فقد كانت تنسب الى العجم ، ودل على ذلك أشعار له منها :

فاين مثل أبي فى العرب قاطبة ومن كخالي فى صيابة العجم (٤)

وعرف شاعرنا فى المصادر جميعها بالابويوردي ، وعرف فى بعضها بالكوفني : فالابويوردي نسبة الى أبيورد ، وهي بلدة فى خراسان خرج منها جماعة من العلماء ، وفتحت على يد عبد الله بن عامر بن كريز سنة ٢١ هـ . وقيل : فتحت

(١) أنظر معجم الادباء ١٧ : ٢٢٤ ، والوفيات ٤ : ٤٤٤ - ٤٤٥ .

(٢) نعر النية : بعيدها

(٣) أنظر الوفيات ٤ : ٤٤٥ ، والوافي بالوفيات ٢ : ٩١ ، ومعجم الادباء ١٧ : ٢٢٦

والنجوم الزاهرة ٥ : ٢٠٦ - ٢٠٧ وغيرها من مراجع ترجمته .

(٤) يقال : هو صيابة قومه أي سيدهم .

قبل ذلك على يد الاحنف بن قيس التميمي (١) . وتقع أبيورد في الشمال الشرقي لخراسان ، وهي اليوم في تركستان الروسية .

وأما الكوفني فتسبب الى كوفن ، وهي بليدة صغيرة على ستة فراسخ من أبيورد بخراسان ، بناها عبد الله بن طاهر (٢) .

مولده :

ذكر ابن خلكان في الكلام على كوفن أنه « خرج منها جماعة من المحدثين الفضلاء ، منهم الاديب أبو المظفر محمد بن أحمد الكوفني ، المعروف بالاديب الابيوردي (٣) . وذكر ياقوت في معجم البلدان في الكلام على المادة نفسها ما يشبه ذلك .

وفى ديوان الشاعر اشارة الى أن هذا البلد كان موطن أهله ، وأن الخطابة فيه كانت لعمه ، وأن أول من نصب المنبر فيه أحد أجداده (٤) . ولا يخفى ما لمنصب الخطابة في الاسلام من أهمية تعكس مكانة أسرته هناك . وحين غادر الشاعر قريته التي خرج منها كان دائم الذكر لها والنحنين اليها :

سقى الله رملي كوفن صيب الحيا ولا برحاً مستن راع ورائد
فقد أوطنتها من أمية عصابة غدوا بالمعالي في جوار المحامد

فما تاريخ ولادته فقد اكتنفه الغموض ، إذ سكنت كل المراجع التي ترجمت له عن ذكره ، وهو على أى حال قد جاوز الأربعين من عمره ، فقد ذكر في مقدمة عراقياته - وهي أحد جزأي ديوانه - أنها حصيل ما قبل الأربعين . يقول : « فأودعتها - المجلة وهي ديوانه - خمسة الاف بيت مما أملاه علي مرح الفتاء ، وميعة الشباب وشرخ الصبى ، ووسمتها بالعراقيات . . . وأما ما سمح به خاطر حين ولتني الاربعون أذنايها ، أو بدر به إذ مقحت الخمسة الاعقد ، وأظلتني وأضحة القتير وعلتني أبهة الكبير ، فهو ينتظم في سلك ما أقوله ، ويتكفل بتحييره امتداد العمر وطوله . . . » (٥) .

شيوخه وتلاميذه :

سمع الابيوردي عن طائفة من الشيوخ وروى عنه جماعة . ومن تتلمذ على

(١) الوفيات ٤ : ٤٤٩ ، والشذرات ٤ : ١٨ ومعجم البلدان : « أبيورد »

(٢) معجم البلدان : « كوفن »

(٣) الوفيات ٥ : ٤٤٩

(٤) أنظر ديباجة القصيدة (٦٨) من ديوانه ١ : ٤٤٥

(٥) ديوان الابيوردي ١ : ٩٥ - ٩٧

أبيديهم أبو القاسم اسماعيل بن مسعدة الجرجاني (ت ٤٧٤) وأبو بكر أحمد بن خلف الشيرازي (ت ٤٨٧) ، وأبو محمد الحسن بن أحمد السمرقندي (ت ٤٩١) وأبو بكر عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١) واضع أصول البلاغة ، وأبو الفضل أحمد بن الحسن بن خيرون (ت ٤٨٨) وغيرهم .
وممن روى عنه أبو بكر محمد بن القاسم الشهرزوري (ت ٥٣٨) وأبو طاهر أحمد بن محمد الحافظ السلفي (ت ٥٧٦) وأبو عامر محمد بن سعدون العبدي (ت ٥٢٤) وأبو محمد عبد الله بن نصر المزيدي (ت ٥٤١) وغيرهم (١)

ثقافته وآثاره :

أما ثقافته ومعارفه التي تلقاها من أساتذته فهي ثقافة متنوعة واسعة ، أحسن ما يصورها ما ذكره ياقوت من أنه « كان اماماً في كل فن من العلوم ، عارفاً بالنحو واللغة والنسب والأخبار ، ويده باسطة في البلاغة والانشاء ، وله تصانيف في جميع ذلك ، وشعره سائر مشهور » (٢) . وهو فوق ذلك أحد قراء أبيورد ورواة الحديث الشريف .

وصنف الابيوردي كما تقدم عدداً من الكتب لم يسلم منها سوى أقلها ، ولم يبق من سائرهما غير ثبت بأسمائها . فقد سلم لنا من آثاره :

١ - المختلف والمؤتلف . وهو كتاب في الانساب حققه المرحوم الاستاذ الدكتور مصطفى جواد ، ونشره مع المختلف والمؤتلف لابن الصابوني ، المجمع العلمي العراقي في بغداد سنة ١٩٥٧ م .

٢ - ديوان شعره . وهو جزءان : العراقيات والنجديات . وقد عنيت بتحقيقه وشرحه ، ونشره مجمع اللغة العربية في دمشق في مجلدين عامي ١٩٧٤ و ١٩٧٥ م .

٣ - زاد الرفاق . وهو كتاب يشتمل على مناظرات مع أرباب النجوم ، وغير ذلك من المحاضرات في الانساب واللغة وما يزال الكتاب مخطوطاً .

أما آثار الابيوردي التي ضاعت على مر الأيام ، فقد أحصى ياقوت منها اثني عشر أثراً (٣) :

١ - تاريخ أبيورد ونسا

-
- (١) في شيوخ الابيوردي وتلاميذه أنظر مثلاً: معجم الادباء ١٧ : ٢٣٥ - ٢٣٦ ، والمنظم ٩ : ١٧٧ ، وطبقات الشافعية ٤ : ٦٢ ، وبغية الواعية ١ : ٤٠ ومראה الزمان ٨ : ٤٩ ، واللباب ٣ : ١٥٥ ، وفزحة الالباء ٤٠١ ، والانساب : « المعاوى »
(٢) معجم البلدان : « أبيورد » .
(٣) معجم الادباء ١٧ : ٢٤٣ - ٢٤٤ .

- ٢ - قبسة العجلان فى نسب آل أبي سفيان
- ٣ - نهزة الحافظ
- ٤ - المجتبي من المجتنى
- ٤ - ما اختلف وأتلف فى أنساب العرب
- ٦ - طبقات العلم فى كل فن
- ٧ - الانساب (١)
- ٨ - تعلقة المشتاق الى ساكني العراق
- ٩ - كوكب المتأمل فى وصف الخيل
- ١٠ - تعلقة المقرر فى وصف البرد والنيران وهمدان
- ١١ - الدرة الثمينة
- ١٢ - سهلة القارح ، فى الرد على المعري فى سقط الزند
وعثرت له على مؤلفين آخرين ذكرهم فى الزاد هما :
- ١٣ - تلو الحماسة . وهو مجموعة من اشعار المحدثين ، تقفى فيها اثر ابي تمام فى حماسته .
- ١٤ - بغية الشادي من علل العروض

حياته :

عاش الشاعر حياة صاخبة حافلة بالاحداث الجسيمة والتقلبات المثيرة .
ولسنا نعرف شيئاً عن نشأته الاولى قبل مغادرته مسقط رأسه ووصوله الى بغداد .
وفى بغداد تطلع الشاعر الى آفاق واسعة من الطموح والشهرة ، ووافق ذلك في نفسه هوى شديداً ، فبدأ اتصالاته بالوزراء والخلفاء يمدحهم ويتقرب اليهم لا طمعاً فى مال ، بل توسلاً للظهور والمجد ، وتحقيقاً لما كان يجيش فى نفسه من الوصول الى الرئاسة والسلطة . ولم تنقف على الاعمال التي تعاطاها فى بغداد ولكننا نجد المراجع تشير الى عدد من المناصب التي تقلب فيها ، والاتصالات التي حاولها دون أن تحددها بوقت أو تربطها بسياق ، فهو فى فترة ما يتقرب من أمير الحلة المزيدي صدقة بن منصور ابن دبيس الاسدي (٤٤٢ - ٥٠١) ويمدحه ثم يفارقه مغضباً . ونجده مرة أخرى فى بغداد فى خدمة الوزير مؤيد

(١) لعل « المختلف والمؤتلف » و (ما اختلف وأتلف فى أنساب العرب » و « الانساب » تكون كتاباً واحداً .

الملك بن نظام الملك • ولما عادى مؤيد الملك وزير الخليفة عميد الدولة ابن جهير ، ألزمه أن يهجوه ففعل • فسعى عميد الدولة الى الخليفة بأنه قد هجاك ومدح صاحب مصر (الفاطمي) ، فأببح دمه فهرب الى همدان • والظاهر أنه كان في المحسوبين على الديوان الخلافي ، إذ صدرت عن هذا الديوان كتب عوتب فيها على مفارقة بغداد ، فأجاب عن ذلك برسالة رفعها الى مقام الخلافة ، أوضح فيها ظروف ابتعاده وختمها ببديعة من بدائع في مدح الخليفة المستظهر بدأها بقوله :

لك من غليل صبابتي ما أضمر وأسر من ألم الغرام وأظهر

وأشار في بعض أبياتها الى نيته العودة

بغداد أيتها المطي فواصل عناق تن له القلاص الضمر (١)

ونجده في أخريات حياته في همدان يشتغل بالتدريس والتصنيف مدة ، ثم يرشح ليكون طغرائي الملك هناك (أي صاحب الطغراء وهي رئاسة الديوان) • ولكن يموت هذا فيرجع الى أصفهان ويستقر فيها • ويقول أخيراً أشرف مملكة السلطان محمد بن ملكشاه (أي الولاية على إشرافها) •

كل أولئك يشير الى أن حياته لم تكن بالوادة المطمئنة ، ولم تخل من كثير من الدسائس والخصومات ، كما لم تخل فترات ابتعاده عن بغداد من التشوق لها ، والحنين للرجوع اليها ، مما نجده ماثلاً في ثنائيا ديوانه •

أخلاقه :

استمد الابيوردي أخلاقه من أصالة نسبه ، وما كان يؤمله له هذا النسب من علو الهمة ، وما يتوهم أنه يوصله اليه من رفيع المنصب • وهكذا وصف بأنه كان رئيساً عالي الهمة ذا باو وتيه وصلف • وحدث السمعاني صاحب « الانساب » عن أحمد بن سعيد العجلي قال : سمعت الابيوردي يقول في دعائه : اللهم ملكني مشارق الارض ومغاربها ! فقلت له : أي شيء هذا الدعاء ؟ فكتب الي بهذه الابيات

يعبرني أذو عجل ابائي	على عدي وتيهي واختيالي
ويعلم أنني فرط لحي	حموا خطط المعالي بالعوالي
فلمست لحاصن ان لم أزرها	على نهل شبا الاسل الطوال

(١) العنق : ضرب من السير السريع • والقلاص الضمر : الأبل الضامرة لدؤوبها على السير لخفتها وقلة شحمها • والرسالة القصيدة في معجم الادباء ١٧ : ٢٤٧ - ٢٥٧ والقصيدة في الديوان ١ : ٣٣٩ - ٣٤٧ •

وان بلغ الرجال مدای فیما أحاوله فليست من الرجال ! (١)

وقد أكد الشاعر فى شعره هذا « التيه والصلف » الذي نعت به ، فملاً ديوانه فخراً بنفسه وعلو همته ، ولم يفسد رصغرة ولا كبيرة من المعالي الا أحصاها ونسبها الى نفسه ، وزين بها شعره ، فجاء فى جملة صورة لهذه النفس الابية التي تحمل الضيم وتقارع الخطوب وتطمح أبدا الى أعلى الدرجات :

ألم تعلمنا اني على الخطب ان عرا صبور اذا ما عاجز عيل صيره
فلا عز حتى يحمل المرء نفسه على خطة يبقى بها الدهر ذكره
ويغشى غمارا يتقى دونها الردى فان هو أودى قيل : لله دره !

ولعل القطعة التالية تعكس بعض خصائصه الاخلاقية السامية التي عرف بها

قضت وطرا مني الليالي فلم أبج بشكوى ، ولم يدنس علي قميص
أغالي يعرضي والنوائب تعترى وغيري يبيع العرض وهو رخيص
وقد علمت عليا كنانة أنني على ما يزين الاكرمين حريص
أصون على الاطماع وجها لبشره اذا عبس الدهر الخؤون ، ويبص (٢)
فظهرى بأعباء الخصاصة مثقل وبطني من زاد اللئام خميص

مذهبه الشعري وأغراضه :

هذا النمط من الخلق الرفيع أملى على الشاعر مذهباً خاصاً فى النظم خالف فيه كثيراً من أقرانه ومعاصريه . وقد رسم لنفسه خطوط هذا المذهب وأوضح معالجه وحدوده فقال فى مقدمة ديوانه : « المدح طعمة الوقاح ، وفى النسيب بالعفيفة ابتهاج ، والهجاء يستثير عليك اللئيم . وقد لهجت بالشعر فانشتر به مناقب قومك . وان أجنث الى المدح فقله كيما قال الكندي :

وحططت رحلي فى بني ثعل ان الكرام للكريم محل » (٣)

وقال فى بعض شعره :

ان مسني العدم فاستبقى الحياء ولا تكلفني مديح العصبية السفلى

(١) أنظر مثلاً : معجم الادباء ١٧ : ٢٣٧ ، والانباء ٣ : ٥٠ ، والوفيات ٤ : ٤٤٥ . والطبقات ٤ : ٦٢ .

وفرد الحى : سابقهم ومتقدمهم . والحاصن من النساء : العفيفة . وشبابة السيف : حد طرفه . والاسل : السيف أو الرماح على التشبيه .

(٢) الوبيص : اللمعان والاضاءة .

(٣) البيت لامرئ القيس فى ديوانه ص ١٩٩ . والابتهاج : الادعاء كذباً . وأجنث الى المدح : ألجئت اليه .

وشعر مثلي - وخير القول أصدقه - ما كان يفتر عن فخر وعن غزل

أما الهجاء فلا أرضى به كرمًا والمدح ان قلته فالمجد يغضب لي

ومع أنه وجه ديوانه فعلا نحو الفخر والغزل فشغلا منه حيزا كبيرا ، الا أنه لم يقصره عليهما كما قال ، بل نظم في كل الاغراض الشعرية ، ولكنه كان حريصا على ألا يسترسل في الاغراض التي ذمها فالهجاء ليس له في الديوان حيز يذكر .
أما المدح - وهو صلب الديوان وغرر قصائده ، فكان يتحرى فيه ممدوحيه ويتخيرهم ويسمو بأماديحه لهم ، فيحيلها فخرا بنفسه وقومه . وقد أفصح عن ذلك بقوله :

ولم أنظم الشعر عجباً به ولم أمدح أحدا عن أرب

ولا هزني طمع للمقريض ولكنه ترجمان الادب

وللفخر أعني به لا الغنى فعن كسر بيتي جيب العرب (١)

وحتى في أماديحه لم يسف اسفاف كثير من معاصريه أو يستجد استجداءهم ولو رجعنا الى أشعاره وأشعارهم وجدنا مصداق ذلك في كثير من الشواهد التي لا يحتمل ايرادها أو ايراد بعضها هذا المقال .

ولنلق الان نظرة سريعة على أغراض ديوانه الشعرية الرئيسية التي حددها في الابيات التالية ، وكأنه أحب لنفسه ألا يعرف الا بها :

فان أمدح اماما أو هماما فلا جاهاً أروم ولا نوالا

وأنظم حين أفخر رائعات تكون لكل ذى حسب مثالا

وأعبت بالنسيب ولست أغشى الـ حرام فيقطر السحر الحلالا

مدح الابيوردى نخبة من الناس مختارة على رأسها من الخلفاء العباسيين المقتدي بأمر الله وولده المستظهر بالله ، ومن السلاطين السلجوقيين ملكشاه وولده محمد ، ومن الوزراء نظام الملك وولده عبيد الله وأحمد ، ومن أمراء العرب صدقة بن منصور الاسدي . ومدح أيضا عددا من مقدمي بني عقيل وجمع وكنانة وخزيمة وشيبان .

وهذه بعض الظواهر التي طبعت بمدحيات الشاعر :

١ - أبرز هذه الظواهر ادلال الشاعر بشعره واعتداده به اعتدادا لا حدود له يقول مثلا في مخاطبة أحد ممدوحيه :

وتصفح الكلم التي وصلت بها مرور البلاغة شدة وليان

(١) كسر البيت : جانبه . وجيب العرب عنا : كنا لها وسطا .

تلقي الي عنانها عن طاعة
ولها على المتشاعرين حران
والشعر راض آبية لي مقول
نرب الشبا ، وفصاحة وبيان

٢ - أدخل الشاعر فى بعض مدائحه عنصر المبالغة ، فلقد أضفى على ممدوحه جملة من الصفات والاعمال بدوافع مختلفة فجعل من الخليفة المقتدي مثلاً الخليفة العادل وحامي الاسلام والمستأمن على الرعية :

حمى بيضة الاسلام فاستحكمت به
عراه ، وقد شدت اليه بامراس
يلوذ الرعايا آمنين بعزه
لياذ عتاق الطير بالجبل الراسي
ويلحفهم ظلا من العدل وارفا
ويرعاهم بالنائل الغمر والباس
والحقائق التاريخية لا تؤيد ذلك ، بل تذكر ما يشبه أن يكون مخالفا له ، لخروج الامر من أيدي الخلفاء فى تلك العهود .

٣ - لعل شاعرنا من أعف شعراء عصره نفسا وأبعدهم عن الاستجداء بالشعر ، فقد وقف من ذلك موقفا يبين عنه قوله لاحد ممدوحه :

ولولاك لم تخطر ببالي قصائد
هوابط فى غور ، طوالع من نجد
فهن عذارى مهرها الود لا الندى
وما كل من يعزى الى الشعر يستجدي
وهو موقف جدير بأن نسجله له ازاء ما عرفناه من شعراء عصره من ذهابهم مذهب التكسب فى المديح .

وأبرز المعاني التي تردت فى مدائحه المعاني السائرة التي تناولها الشعراء عادة من شجاعة وكرم ورفعة نسب ورجاحة رأى . غير ن شاعرنا امتلك قدرة فائقة على صياغة المعنى الواحد بأساليب فصيحة مختلفة ، وقوالب متعددة فى حلل ناصعة من البيان تزيينه وتكسبه كثيرا من الرواء ، وتضفي عليه كثيرا من الملاء والرونق .

الا أن ذلك لم يحل دون تأثره بأنموذجات سابقة من أشعار الجاهليين والاسلاميين والمحدثين . ومن أبرز من تأثر بهم المتنبي والشريف الرضي وأبو تمام . أما المتنبي فآثره فيه أقوى فيما سيأتي الكلام عليه فى الفخر والشكوى . وأما تأثره بأبي تمام وشعراء حماسه فظاهر فى اقتباس معانيه المدحية ، وفيما تقدم من تصنيفه مجموعة شعرية على غرار الحماسة ، وفى مواضع لفظية منها قوله :

هيهات أن يلد الزمان نظيره
أن الزمان بمثله لبخيل
وأخذه من قول أبي تمام :

هيهات لا ياتي الزمان بمثله
أن الزمان بمثله لبخيل

وقوله :

ريا المعاصم ، ظمأى الخصر ، لا قصر يزوي عليها ولا يزري بها طول
وقد ألم فيه بقول الصمة القشيري من شعراء الحماسة :

ومخملة باللحم من دون ثوبها تطول القصار ، والطوال تطولها

استمد شاعرنا أصلته في فن الافتخار من مطامحه البعيدة وهمته العالية التي
فتحت أمامه أبواب الاجادة فيه . فقد شغل الفخر جزءا من ديوانه غير يسير . ولم
يأت على نمط واحد فكان يرد أحيانا في قصائد طويلة ، وأحيانا أكثر في مقطعات
قصيرة ، ووجدناه بين ذلك منبثا في ثنايا مدائحه .

ولا يخرج ما ضمنه الشاعر فخرياته في الجملة ، عما سبقه اليه المتنبي . ولقد
اقتفى فيها أثره اقتفاء واضحا حتى استجزنا أن نطلق عليه لقب المتنبي
الصغير . وهذه أهم مواطن الفخر عند البيوردي مقارنة بفخريات أستاذه المتنبي :

١ - نشأ البيوردي العربي النسب ، الاموي الاصل ، في بلاد فارس ، وانتسب
الى غير العرب لجهة أمه . الا أن تلك النشأة والنسب الاعجمي لم ينسيها
عصبية العربية أو يحدا من اعتزازه بها ولسنا نشك في أن شعره يمثل الشخصية
العربية في عصره أصدق تمثيل ، بما اشتملت عليه من إباء وترفع عما يزري
بمروءة الرجل وكماله ، ويمثل أيضا بيوتات العرب الاصلاء الضارين بعروقتهم
في المجد والمتخلفين بكل صفاتهم الحميدة وخصالهم الرشيدة . وقد تمثلت عصبية
العربية - الى جانب افتخاره بعروبته وعروبة قومه - بالتفافه حول بعض الامراء
العرب الذين محضهم جملة صالحة من مدائح ديوانه . ولعل انصرافه الى هؤلاء
تعبير عن سخطه للعرب واستنكاره أن تنزع مقاليد الامور من أيديهم وتوكل الى
غيرهم ، واستنهاض لهمهم لآخذ حقوق العرب واستعادة وجودهم .

وأشبه البيوردي المتنبي في تعلقه بالعروبة ومحاماته عنها ، فاذا مدح المقتدي
أشاد بمجد العباسيين وعروبتهم وقرابته لهم :

وقد ولدتنى عصبية ضم جدهم وجد بني ساقى الحجيج عروق

واذا ذكر أصحابه افتخر بنشأتهم العربية وشجاعتهم :

معي كل قضا فضاض الرداء سميدع أصحاب منه فى الوقائع أروعا

غذته ربا نجد فشب كأنه شبا مشرفي يقطر السم منقعا

٢ - كان كلا الشاعرين شديد الاعتزاز بشعره ، محسا بجودته وعظيم قيمته .
يقول البيوردي :

فقت الاعارب فى شعر نامت به كأنه لؤلؤ فى السلك منضود

ان كان يعجزهم قولي ويجمعنا أصل ، فقد تلد الخمر العقائد

وعبر عن وثوقه ببقاء شعره وخلوده على الزمان بقوله :

كلماتي قلائد الاعناق	سوف تغني الدهور وهي بواق
دل فيها الذهن الجلي بالفا	ظ رفاق على معان دفاق
فقريضي يراه من ينقد الاشـ	عار سهل المرام صعب المراقـ
واليه يصبو الرواة وفيه	مع شكل الحجاز ظرف العراق

وتجاوز ذلك حتى وجد في شعره المثل المحتذى والانموذج الاكمل :

فكل من فاه بعدي بالقريض أتى بما ثقيل في تحبيره أثري

٢ - أشبه كل من الشعارين صاحبه في أخلاقه وطموحه وتطلعاته . وترتب على ذلك التزامات سلوكية أدت بالشاعرين الى الابتعاد عن اللهو والمجون ومعاقرة الخمر ، فقد عرف كلاهما بعفته وتنزهه عما لا يليق بالرجال ، وصور كل منهما سمو أخلاقه فقال المتنبي :

وترى الفتوة والمروة والابو	ة في كل مليحة ضراتها
من الثلاث المانعاتي لذتي	في خلوتي ، لا خوف من تبعاتها

وقال البيوردي :

لعمر أبي وهو ابن من تعرفونه	لقد ذل عرض لم يصنه اباء
ايقتادني نحو الدنية مطمع	علي اذن ان لم اذره عقاء
لوت طرفي حبلي عن الذل همة	لها بمناط الشعرين ثواء

وأدت هذه النظرة الى تعالي الشعارين عن الناس وتحقيرهم ، والغلو في ذلك غلوا كبيرا . قال أبو الطيب :

أذم الى هذا الزمان أهيله	فاعلمهم قدم ، وأحزمهم وغد
ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى	عدوا له ما من صداقته بد

وقال البيوردي :

الناس من خولي والدهر من خدمي	وقمة المجد عندي موطيء القدم
لو صيغت الارض لي دون الوري ذهباً	لم ترضها لرجي نائلـي هممي

وقادهما ذلك كله الى ترديد الشكوى من كل شيء ، فهما يستنكران تقلب الدهر وتوالي مصائبه ، ويطمحان الى المعالي ويسعيان اليها ، ولكن لكل منهما موقفاً في مواجهة تلك المصائب . فشاعرنا يستهين بحدوثات الدهر ، ويسمو بعزته عليها ، ويعتصم بالصبر ازاءها :

تفكر لي دهري ولم يبر انسي أعني وأحداث الزمان تهون

فذل يريني الخطب كيف اعتداؤه وبت أريه الصير كيف يكون

والمقنبي يضحى فى سبيل مطامحه بلغ التضحية :

ذريني أنل ما لا ينال من العـلا نصعب العلا فى الصعب والسهل فى السهل

تريدين لقيان المعالي رخيصة ولا بد دون الشهد من ابر النحل

وجماع القول ان الابیوری كان شاعر العرب فى القرن الخامس كما كان المقنبي شاعرهم فى القرن الرابع ، فشعره يفصح عن عزتهم وابائهم • وقد تشابه الشاعران فى الاعتداد بالنفس والعزوف عن الدنيا والترفع عن الملذات • ولكن شاعرنا كان أكثر قصدا واعتدالا فى ثورته وفخره ، على أن له أصلا فى النسب والملك يجعل كلامه أقرب الى القبول وأدنى الى التصديق

أحب شاعرنا العرب وعشق حياتهم الاولى ، وبانت امارات ذلك فى شعره الذي صور فيه تلك الحياة ومستلزماتها البدوية من الترحل والفراق وشيم البرق وجوب المهامه • وكثر فى شعره ذكر أماكن بأعيانها مثل وجرة والعقيق وحضن والعذيب • • وأحب مع العرب وحياتهم نساءهم ، وتغنى بجمالهن وكريم محتدهن وتطرب بذكر أسمائهن وترديدها ، ورسم لغزله بهن لوحات حية ، وصور خفقات قلوبهن مسورا نابضة •

وقد ضمن ذلك كله نوعين من شعره الغزالي : الغزل التقليدى فى مطالع القسائد ، وغزل المقطعات التي سماها النجديات • وبين النوعين فروق في المحتوى والشكل أبرزها أن المطالع الغزلي أشعار مصنوعة ممهدة لما وراءها من فنون الشعر ، وأن المقطعات نفثات وجدانية أقرب الى روح الغزل وصدق العاطفة وصفائها •

واكتفى من غزل المطالع بالتمثيل لما تستتبعه مشاهد التحمل والفراق من وقوف على الطلول ، ومناجاة ديار الحبيب • • فقد عكس فى لوحة تمثل بقايا الديار ووقوف المحب أمامها ذاهلا متأملا ، الحالة النفسية لهذا العاشق الموله ، متمثلة في مساءلة الديار ، والتحسر على ما فعلت بها الايام ، والبكاء لها بكاء مرا :

وأشلاء دار بالمحب من منى وقفت بها والارحبية تهدر

أسائلها والعين شكرى من البكا وهن نحيلات المعالم دثر

وأستخبر الاطلاع عن ساكنى الحمى فلا الدمع يشفيني ، ولا الربع يخبر

كأن ديار العامرية باللسوى صحائف تطويها الليالي وتنشر

فهل عبرة تقضى المعاهد حقها كما يستهل اللؤلؤ المتحدر

(١) العين الشكرى : الممثلة دمعاً •

أما النجديات فقد اشتقت تسميتها التي اختارها الشاعر ، من حبه نجدا ، لحبه أهلها ونساءها :

أحب لصبا قلعات نجد وما شغفي بها لولا هواها ؟

ونمثل للمقطعات النجديات بهذه الابيات التي فاقت رقة وعذوبة ، والتي أرقص فيها الشاعر نفوس العشاق وأرق قلوب الاحبة :

أشكو الهوى لترقي يا اميمة لي فطالما رفق المشكو بالشاكي

يشقى ببعضي بعضي في هواك فما للعين باكية والقلب يهواك

ان يحك ثغرك دمعي حين أسفحه فأنني جدت للمحكي بالحاكي !

وليست النجديات نسيج وحدها في هذا العصر ، فقد عمل الشريف

الرضي مجموعة غزلية واسعة الشهرة عرفت بالحجازيات ، وعمل الطغرائي مجموعة أخرى لها الاسم نفسه . وقد حفظت النجديات كاملة مستقلة ، في حين يثت تلكما الحجازيات في ديواني الشاعرين ونشير الى الصلة الوثيقة بين نجديات الابيوردي وحجازيات الشريف . وأساس هذه الصلة التشابه في التسمية ، ولو أنها لا تدل على موطن النظم ، وأن في النجديات مقطعات نظمت على شاكلة مثيلاتها من الحجازيات وعلى رويها وعرضت بها . ومن قبل التقى الشاعران في المبادئ والغايات ، فكلاهما يرى نفسه من خلال نسبه ، ويعدها للوصول الى ما يرمي اليه ، وهو ما تعكسه الحجازيات والنجديات جميعا .

نثره :

لم يكن الابيوردي شاعرا فحسب ، ولكن كان شاعرا ناثرا . وقد دل على ذلك ثبت مؤلفاته الذي أوردناه ، وما سلم لنا من اثار . ولو اتسع المقام لأوردنا أنموذجات من نثره مستقلة من « زاد الرفاق » . ولكننا نحيل القارئ الى رسالته للخليفة المستظهر التي أوردناها اقوت في معجم الادباء ، وتقدمت الاشارة اليها . .

ويمكن القول ان الابيوردي الناثر حافظ بصفة عامة على التائق البديعي ورونقه وأصالته ، وورث التأثير بأسلوب المقامات وطريقتها في الاداء . الا أنه سلك في « زاده » مسلكا وسطا بين طريقتين : طريق الاسلوب المتوازن الذي أخذ به الجاحظ ومن تبعه من المترسلين وأرباب التصنيف الادبي في القرن الرابع ، وطريق الاسلوب البديعي الذي بلغ أوجه في نهاية القرن السادس على يد القاضي الفاضل والعماد الاصبهاني .

في أحد أيام شهر ربيع الاول من سنة ٥٠٧ ، وقف الابيوردي في حضرة السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه في حضرة ملكه أصبهان ، فخانتة رجلاه

لما قيل من أنه سقي السم ، فسقط وحمل الى منزله (١) .

وهكذا قضى هذا العلم بعد أن أمضى حياة حافلة ، وخلف ديوانا ضخما يعد ثروة لغوية وشعرية كبيرة ، يستجلي الناظر فيها كنوزا من فصيح الالفاظ وبليغ العبارات ورائع الصور . وقد ترك الشاعر الطغرائي مرثية فى صديقه الابيوردي قال فيها :

صحبتي والشباب الغض ثم مضى كما مضيت ، فما فى العيش من وطر
هبنى بلغت من الاعمار أطولها أو انتهيت الى آمالي الكبر
فكيف لي بشباب لا ارتجاع له أم أين أنت ؟ فمالي منك من خبر
سبقتماي ، ولو خبرت بعدكما لكنت أول لحاق على الاثر

بعض مراجع البحث

— انباء الرواه للقفطي . تحقيق محمدأبو الفضل ابراهيم (القاهرة ١٩٥٠ - ١٩٥٥)

— الانساب للسمعاني . طبع حجر (الولايات المتحدة)

— بغية الوعاة للسيوطي . تحقيق محمدأبو الفضل ابراهيم (القاهرة ١٩٦٤ - ١٩٦٥)

— حماسة أبي تمام بشرح المرزوقي - تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون (القاهرة ١٩٥١ ، ١٩٥٣ ، ١٩٦٧)

— ديوان الابيوردي . تحقيق الدكتور عمر الاسعد . مطبوعات مجمع اللغة العربية (دمشق ١٩٧٤ - ١٩٧٥)

— ديوان امرئ القيس . تحقيق محمدأبو الفضل ابراهيم (القاهرة ١٩٦٤)

— ديوان الشريف الرضي (بيروت ١٩٦١ ك)

— ديوان الطغرائي (القسطنطينية ١٣٠٠)

— ديوان المتنبي بشرح العكبري . تحقيق مصطفى السقا ورفيقه (القاهرة ١٩٥٦)

— زاد الرفاق للابيوردي . (مخطوطة دار الكتب) ٥٨٢ (أدب)

— شذرات الذهب لابن العماد (القاهرة ١٣٥٠ - ١٣٥١)

(١) حددت سنة وفاة الشاعر فى الطباعات خطأ من الناسخين والمحققين الا من ابن خالكان لان المراجع التي نقلت عنه ذكرت وفاته المختلفة لوفيات الاعيان سنة ٥٥٧ هـ . وهو سنة ٥٠٧ هـ

- طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (القاهرة ١٣٢٤)
- اللباب فى تهذيب الانساب لابن الاثير (القاهرة ١٣٥٧ - ١٣٦٩)
- مرآة الزمان لسبط ابن الجوزى (حيدر اباد الركن ١٩٥١)
- معجم الادباء لياقوت - نشر مرجليوث (القاهرة ١٩٣٦ - ١٩٣٨)
- معجم البلدان لياقوت - (بيروت ٩٥٥ - ١٩٥٧)
- المنتظم فى تاريخ الملوك والامم لابن الجوزي (حيدر اباد الركن ١٣٥٩)
- النجوم الزاهرة لابن تغري بردي (القاهرة ١٩٢٩ - ١٩٣٩)
- نزهة الالباء فى طبقات الادباء لابن الانبارى • تحقيق محمد أبو الفضل
ابراهيم (القاهرة ١٩٦٧)
- الوافي بالوفيات - للصالح الصفدى (استنبول ١٩٤٩)
- وفيات الاعيان لابن خلكان - تحقيق د. احسان عباس (بيروت ١٩٧٢)

